Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نطاق بيئته ومزاجه وعصره وظروفه ، ولا يعنى بالضرورة أن ما اختار له أفضل ما قرأ أو سمع من إبداعه ، إلى جانب أن ابن الخطيب نفسه لم يكن مجرد مؤرخ كاتب ، أو أديب شاعر ، وإنما كان قبل هذا وزيرًا أول ، ورجل دولة مسئول ، ويضع فى اعتباره هذه الجوانب كلها حين يختار أو يكتب ، وما أكثر ما ألمح فحسب ، أو صمت تمامًا ، أديب غرناطة الكبير . ولكن ذلك لا يحول دون أن نبدى ملاحظاتنا على القليل الذى بين أيدينا ، وأن نقول رأينا فى ضوئه ، وهو رأى قابل للتغيير إن جد مع الزمن ما يجعل مراجعته ضرورة .

أول ما يلفت النظر فى شعر أبى البقاء هذه اللغة البسيطة السهلة ، تكاد أن تكون عامية ، مما يجرى على ألسنة الناس عادة ، وهو أمر لا يجئ عنده عن عجز أو تقصير ، لأن بعض مقطوعاته التى آثر فيها جانب الصناعة ، حفلت بالألفاظ المعجمية ، وإن جرت بين أنداده من شعراء عصرى الخلافة والحجابة بوجه خاص ، وإذن فهو يسلك هذا الطريق اقتناعا منه ، وإيثارا له ، وليس مساقًا إليه . ويدعم رأيى هذا أننا لا نقع فى كل ما لدينا من شعره على لفظ واحد غير عربى ، رغم أنه عاش فترة المد والجزر العنيفة بين الإسلام والمسيحية على بطحاء شبه الجزيرة ، وهو تجاذب يتجاوز الحرب إلى الاجتماع والاقتصاد ، وحتى الثقافة ، على السواء ، ومع ذلك ليس ثمة لفظ رومانثى واحد فى أى من قصائد أو مقطوعات أبى البقاء .

يميل أبو البقاء إلى الألفاظ الجارية ، ويؤثرها على غيرها ، وإن أدت هذه المعنى نفسه ، وجاءت فى ذات الإيقاع ، فهو يستخدم كلمة « بخت » ، بدلا من « حظ » ومعناهما واحد ، ووزنهما العروضى واحد ، وذلك فى قوله :

إذا لم يُرزق الإنسانُ بختا فما حسناته إلا ذنوب

وقد يجئ شطر البيت كله من هذا الكلام الدارج :

ولا تسل عن جَلدى والله مالى جلدْ

ولو أن شعراء عصره أوغلوا فى القديم ، وآثروا الألفاظ الصعبة ، على طريقة ابن هانئ أو ابن دراج القسطلى ، لفسرت موقفه بأنه كان رد فعل ضد هذا الإيغال ، ولكن شعراء